Impact Factor (SJIF): 6.092 E-ISSN: 2583-1615

International Journal of Research in Academic World

Received: 29/May/2024 IJRAW: 2024; 3(7):17-18 Accepted: 03/July/2024

الدرس الصوتي عند العرب : نشأته و تطوره

الدكتور محمد مخدوم أحمد المعشوقي

الأستاذ المساعد (سي) بقسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة العثمانية ، حيدرآباد - الهند

الخلاصة

اهتم المسلمون بقراءة القرآن منذ نزوله والعلماء صفوا قواعد اللغة ووصفوا مخارج الأصوات لهذا نشأ علم التجويد وتطور علم الصوت تطورا عاما حتى ظهر في حدود القرن الرابع الهجري لأنه لم يعرف كتاب ألف في هذا العلم قبل ذلك القرن بمعنى آخر أن علم التجويد تأخر ظهوره من حيث هو علم مستقل فقام علماء التجويد باستخلاص المادة الصوتية من مؤلفات النحويين حتى أصبح علم التجويد علما متقدما في دراسة الأصوات اللغوية

فقد كان الخليل بن أحمد الفراهيدي هو أول من وضع أصول هذا العلم من العرب فاعتنى بدراسة الأصوات اللغوية وألف كتاب العين فسمى كتابه (العين) لأنه بدا بصوت العين فجاء بعده تلميذه سيبويه إذ أنه استلهم أفكار الخليل وصاغها وطورها وبعد طلع ابن جني، ومن بعد هؤلاء، أخذ العلماء دراسة الأصوات و الموضوعات اللغوية.

فهو يسمّى عند المحدثون بعلم الأصوات الوصفي، وظلت الدراسات الصوتية القديمة ابتداء من مؤسسها الخليل إلى ما قبل العصر الحديث، وفي العصر الحديث استطاع المحدثون أن ينهضوا بهذه الدراسة وجعل لها مكانا خاصة. أسموه بعلم الأصوات أخذ العلم يدرس بشكل مستقيل نوعا ما عن الدراسات النحوية والصرفية حيث تدرس الأصوات منفردة وتدرس أيضا من خلال التركيب وألفت كتب ومؤلفات خاصة بالدراسة الصوتية

أسباب نشوء الخلاف الصوتي بين العلماء العرب:

فنشأ الخلاف بنشوء الدراسات النحوية واللغوية ، ولذلك فإن أسباب نشوء الخلاف الصوتي لا تختلف عنها في النحوي والصرفي فجميعها نشأت عن أسباب معروفة إلى حد ما وبين فرق هي الأخرى معروفة لدى الباحثين، حيث بدا مثلا الخلاف بين أهل البصرة وأهل الكوفة منذ بدا الدرس النحوي واللغوي عند شيوخهم الأوائل.

إن أهم أسباب نشوء الخلاف الصوتي بين العلماء والقدماء وعدم اتفاقهم في المسائل الصوتية ينشأ عن اختلاف اللهجات العربية، وتعددها الأمر الذي يشكل عارضا في جمع هذه اللهجات .تحت لغة واحدة، وعند جمعها بقيت هناك شواذ قاس عليها أهل الكوفة وهو السبب الثاني من هذا الخلاف حيث كان الكوفيون أكثر تساهلا من البصريين في أخذ اللغة.

الكلمات الدالة :

نشأة علم التجويد, تطور علم الأصوات بسبب نزول القرآن الكريم, أسباب نشأة الدراسات الصوتية, أهم أسباب نشوء الخلاف الصوتي بين علماء العرب

علوم العربية أكثر من قرنين من الزمان وإن جهود علماء العربية من نحويين ولغويين كانت تقوم بالمهمة التي قام بها علم التجويد بعد أن كتب له الظهور في تعليم الناطقين بالعربية أصول النطق العربي الصحيح فقام علماء التجويد باستخلاص المادة الصوتية من مؤلفات النحويين واللغويين وصاغوا منها علم التجويد مواصلين أبحاثهم بالاستناد إلى تلك المادة مضيفين إليها خلاصة جهدهم حتى أصبح علم التجويد علما متقدما في دراسة الأصوات اللغوية" [3].

ومهما يكن من أمر فقد كان الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ) هو أول من وضع أصول هذا العلم من العرب[4] فاعتنى بدراسة الأصوات اللغوية وألف كتاب العين الذي بين فيه آراءه الصوتية في مخارج الأصوات وصفاتها فسمى كتابه (العين) لأنه بدا بصوت العين وفي مقدمته الموجزة نجد أول مادة صوتية تدل على أصالة علمه وعلى الرغم من أن كتابه يعد أول معجم في العربية يمتاز بالتفرد فانه أرسى فيه أساس علم الأصوات عند العرب من خلال مقدمته التي ضمت معلومات ذات قيمة علمية وتاريخية تتعلق بتحليل الأصوات العربية ودراستها، دراسة عربية خالصة لم يسبقه إليها أحد سواه من العرب أو غير العرب فهو صاحب أول دراسة صوتية منهجية في تاريخ الفكر الصوتي عند العرب. [5]

وعندما درس الخليل مخارج الأصوات وصفاتها كانت أفكاره وتعليلاته طريق من جاء بعده من علماء العربية فجاء بعده تلميذه سيبويه (ت 180هـ) إذ أنه استلهم أفكار الخليل وصاغها وطورها بشكل يتسم بالشمول والدقة فكان دقيقا في تحليلاته وتقسيماته لصفات الأصوات ومخارجها فضلا عن الظواهر الصوتية التي درسها دراسة واعية تنم عن إدراك عميق لأسباب تلك الظواهر وأبعادها الصوتية. حيث أن اختلاف الغايات في الدراسة كان سببا في اختلاف مضمون الدراسة عند الخليل وسيبويه.

لا شك أن في التاريخ اللغوي عند العرب أنه منذ بزوغ فجر الإسلام، ونزول القرآن الكريم على نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم، أخذ المسلمون بقراءته وتلاوته فضلا عن الحفاظ عليه من التحريف فأخذوا بحفظه في صدورهم فكان الجانب النطقي من أهم وسائل حفظ القرآن الكريم آنذاك، فوضع علماء العربية هذه الغاية نصب أعينهم ومن ثم وصفوا قواعد الدراسة اللغة العربية فوصفوا مخارج الأصوات وصفا دقيقا، وتحدثوا عن صفات الأصوات عن طريق الملاحظة فقط، من دون أن يكون لهم من الوسائل الآلية التي تستخدمها في الوقت الحاضر، فوصفوا المخارج والصفات العربية وغير العربية [1]. فنشأ (علم التجويد) فكان هذا المبدأ السبب الأبرز في اهتمام علماء العربية في دراسة الأصوات فألفوا فيها الكتب والمصنفات. ولعل ارتباط الدراسات الصوتية بالقرآن الكريم من حيث النطق السليم للأصوات في ضبط مخارجها وصفاتها، دفع الكثيرين إلى التوهم في أن الدراسة الصوتية إنما هي من اختصاص علماء التجويد والقراءات، ونحن لا نشك في أن علماء التجويد كان لهم النصيب الأوفر في تحمل مجيء هذه الدراسة وتولي رعايتها من بعد ومتابعتهم للبحث فيها، وإن كان ذلك بطريقة خاصة ومنهج معين، وهكذا انتقلت البحوث الصوتية على ما يبدوا – من الميدان اللغوي الدقيق إلى ميدان البحث في مناهج ((الاداء القرآني)) وظلت هذه البحوث تتابع سيرها عبر الزمن في هذا الميدان بصورة أو بأخرى [2]، وهذا الارتباط هو الذي يقود إلى القول أن علم الأصوات قد ارتبط بعلم التجويد.

غير أن علم التجويد، من حيث هو علم، "يعني بدراسة مخارج الأصوات وصفاتها وما يترتب على ذلك من أحكام عند تركيبها في الكلام المنطوق ظهر في حدود القرن الرابع الهجري لأنه لم يعرف كتاب ألف في هذا العلم قبل ذلك القرن بمعنى آخر أن علم التجويد تأخر ظهوره من حيث هو علم مستقل إزاء

*Corresponding Author: الدكتور محمد مخدوم أحمد المعشوقي

جمال محمد بشر ناهيك عن دراسات المستشرقين للأصوات تعلم الأصوات كالبرج والتفكير الصوتي عند العرب لهذي فليش كذلك دروس في أعلم أصوات العربية لجان كانينيو. كل تلك الدراسات جاء مستندة على أساس الخليل الذي شيده وبناه بعده سيبويه، فقد أقر المحدثون أكثر تلك الآراء والحقائق الصوتية التي جاء بها الخليل وسيبويه ومن بعدهم ابن جني.

أسباب نشوء الخلاف الصوتي بين العلماء العرب:

لابد من الإشارة بأن الخلاف نشأ بنشوء الدراسات النحوية واللغوية أي إن الخلاف كان الخطوة التي تلت بعمل أبي الأسود الدؤلي، ولذلك فإن أسباب نشوء الخلاف الصوتي

لا تختلف عنها في النحوي والصرفي فجميعها نشأت عن أسباب معروفة إلى حد ما وبين فرق هي الأخرى معروفة لدى الباحثين، حيث بدا مثلا الخلاف بين أهل البصرة وأهل الكوفة منذ بدا الدرس النحوي واللغوي عند شيوخهم الأوائل أي بين الرؤاسي والخليل ثم اشتد هذا الخلاف حتى صار لكل طائفة علم تنحاز له في زمن الكسائي وسيبويه. وأخذ هذا الخلاف يتصاعد فبدا من مستوى الخلاف الفردي حتى انتهى بخلاف الجماعي والخلاف قد يرد بين أصحاب الجماعة الواحد، وقد ذكر الدكتور شوقي صف رايا يشير فيه إلى أن الأخفش (ت 215هـ) هو الذي فتح أبواب الخلاف وأعد لنشأت (مدرسة) الكوفة فيقول: " وفي رأينا هو الذي فتح أبواب الخلاف عليه، بل هو الذي أعد لنشأة فيما بعد مدرسة الكوفة ثم المدارس المتأخرة المختلفة فإنه كان عالما بلغات العرب وكان ثاقب الذهن حاد الذكاء مخالف، أستاذه سيبويه في كثير من المسائل وحمل ذلك عنه الكوفيون ومضوا يتشعبون فيه فتكونت مدرستهم".[14]

ونحن لا نقول بأن أسباب الخلاف تكمن وراء تعدد المذاهب فحسب بل أن الخلاف كان ناشئا بين أطراف الجماعة الواحد وخير مثال لذلك ما فعله المبرد عندما ألف كتاب (مسائل الغلط) أضف إلى ذلك أن استقراء أهل البصرة للغة العرب كان محصورا بحقبة زمنية محددة لم تتجاوز (150) سنة كما أنه خص لغة نفر من أهل الجزيرة، مما جعل ذلك الاستقراء ناقصا في نظر أهل الكوفة الذين توسعوا في السماع فشملت قبائل ولهجات أكثر مما جمعه أهل البصرة، وكان ذلك مؤداه بأن وجد أهل الكوفة صيغا واستخدامات للغة مغايرة لما قرره أهل البصرة وبالتالي فإن تلك التجوزات التي أطلقها أهل الكوفة كانت مشار خلاف بين الطرفين فمثلا هناك بعض القبائل تقول أولئك وبعضها يقول: الالئك وبعضهم يقول (مستهزئون) بالتحقيق والآخر يقول (مستهزون) بالتخفيف، وكذلك البعض يقول (صاعقة)، والبعض الآخر يقول بالقلب (صاقعة). فهذا نوع من الخلاف الناجم عن اختلاف في لغات العرب ولهجاتها، ولهذا الاختلاف الدور الأكبر في اختلاف القراءات القرآنية التي يصرح بها العلماء في أن القرآن الكريم نزل بسبع لغات[15]، جمع هذه اللغات هي من أهل المدر لا الحضر[16].

ومن خلال ما تقدم نستطيع القول ان أهم أسباب نشوء الخلاف الصوتي بين العلماء والقدماء وعدم اتفاقهم في المسائل الصوتية ينشأ عن اختلاف اللهجات العربية، وتعددها الأمر الذي يشكل عارضا في جمع هذه اللهجات تحت لغة واحدة، وعند جمعها بقيت هناك شواذ قاس عليها أهل الكوفة وهو السبب الثاني من هذا الخلاف حيث كان الكوفيون أكثر تساهلا من البصريين في أخذ اللغة حيث اتسعت دائرة سماعهم كما أشرنا آنفا، أضف إلى ذلك قدر العلماء العلمية وتفاوتها بين عالم وآخر حيث إن هذا التفاوت يؤدي إلى اختلافهم فيما يتوصلون إليه من أحكام في الظواهر الصوتية وغيرها من ظواهر ومسائل العربية.

الهوامش

1. ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها 49.
2. ينظر: علم اللغة العام، الأصوات 169-170.
3. الدراسات الصوتية عند علماء التجويد 19-20.
4. ينظر: التطور النحوي 11، ومدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو 168.
5. ينظر: مدرسة الكوفة 168.
6. ينظر: مدرسة الكوفة 168.
7. ينظر: أصوات اللغة العربية، 10.
8. ينظر: إعجاز القرآن 73-92، سر الفصاحة 110-113.
9. ينظر الإقناع 1: 164 – 521، وجمال القراء وجمال الإقراء – السنحاوي، 2: 498-632.
10. علم الأصوات عند سيبويه وعندنا 30.
11. ينظر المصدر السابق 30.
12. ينظر: مدرسة الكوفة 169.
13. ينظر: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا 31-32.
14. المدارس النحوية 95.
15. ينظر: المزهر 104/1.
16. ينظر: الخصائص 405/1

ويمكن أن نعد ابن جني (ت 392هـ) من أبرز العلماء الذين استطاعوا أن يستوعبوا إنتاج الخليل وسيبويه، بعد ما نقل الأزهري (ت) وابن دريد (ت 321هـ) فكرة الخليل لكنه يتهيأ لها من عمل على إتمامها أو السير في ضوئها فبقت هذه الفكرة تحمل الخطوط الكبرى للدراسة الصوتية[6]، حتى جاء ابن جني فوضع ما يشبه نظرية الصوت اللغوي عند العرب من خلال الجهد الكبير الذي بذله في دراسة الجانب الصوتي فأضفى لونا من الدقة بين أنها دراسة لغوية مهمة يجب على كل عالم في اللغة أن يضعها في عين الاعتبار فأقروا كتابا خاصا بالأصوات سمّاه (سر صناعة الإعراب). فجاءت آراءه في هذا الكتاب لتثير إعجاب المستشرقين وعلماء اللغة الغربيين،، سوى علماء اللغة من العرب – لأن نظرته في دراسة الأصوات كانت نظرة علمية دقيقة، إذ جمع بين الجانب النظري والجانب العلمي التطبيقي فكانت عنوانا على تفوقه في دراسة الأصوات فقد تكلم على الصوت بكلمات علمية لها مفهومها المحدد. فضلا عن تناوله الأصوات العربية من معظم جهاتها وانتلافها في تركيب الألفاظ.[7]

ومن بعد هؤلاء أخذ العلماء في دراسة الأصوات من خلال بحوثهم ومؤلفاتهم في الموضوعات اللغوية إذ اهتم به الصرفيون لأنهم يعللون لبعض الصيغ التي تدخل الأصوات في نطاق دراستها كإبدال الصرفي والإعلال والإدغام والإمالة والحذف وغيرها من المسائل التي كانت تدخل مادة الصرف على الرغم كونها صوتية، وبعدها اخذ المعجميون بدراسة الأصوات لأنه في نطاق دراستهم، وقد أشرنا إلى دراسة ابن دريد في الجمهرة.

أما علماء البلاغة فلم يخرجوا عن الدراسة الصوتية لأنهم كانت لهم بحوث تتعلق بالأصوات تتحدث عن فصاحة اللفظة واضعين شروطا لخلوها من تنافر الأصوات وهو ما يعرف في علم الأصوات بالدراسة التنظيمية وهي طريقة تأليف الأصوات فكانت كتب البلاغة نحو إعجاز القرآن للرماني (ت 384هـ)، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (ت 446هـ)، ومفتاح العلوم للكسائي (ت 626هـ) مثلا بارزا على أهمية الجانب الصوتي في الدراسات البلاغية.[8]

فضلا عن علماء القراءات من نحو ما كتبه ابن مجاهد (ت 324هـ) في كتابه (السبع في القراءات) وابن الباذش (ت 540)، وعلم الدجن السنحاوي (ت 643) وغيرهم الذين نجد في مؤلفاتهم مباحث صوتية واضحة عالجت وبشكل منهجي أغلب الظواهر الصوتية[9].

ولذلك نجد إشارة العلماء المحدثون إلى أصالة هذا العلم والبحث فيه عند العرب فقال شاده ((لم يكن هناك من الشعوب القديمة إلا شعبان قد بحثا في كيفية الأصوات وانتاجها بحثا فاق بحث اليونان دقة وعمقا، وهما الهند والعرب)) [10].

وإن الهند سبقوا العرب في وصف الأصوات بألف سنة أو أكثر، وقد زعم بعض المستشرقين أن العلماء العرب قد اقتبسوا علم الأصوات من الهند[11].

غير أن مذهب العرب في دراسة الأصوات يخالف مذهب الهند في أمور مهمة فالعرب قد استحدثوا هذا العلم من مداركهم الخاصة بأنفسهم، أما الهنود فقد تناولوا الدراسة الصوتية في مخارج الأصوات تحت الرغبة في إجادة ترتيل الكتاب المقدس المعروف بـ فيدا (veda) فاهتموا بما خلفه اليونان، وأضافوا إليه دراسة تناولت مخارج الأصوات، فاستكملوا بذلك ما فات اليونان من استكماله[12]. فهو يسمّى عند المحدثون بعلم الأصوات الوصفي، أما العرب فقد دفعهم القرآن الكريم إلى دراسة الأصوات وعلوم العربية الأخرى، ولذلك نجد أن العرب اعتمدوا الأبجدية على الأصوات المفرد مثل (ب، ت، ث) بينما الهنود كانت أبجديتهم تعتمد على المقاطع من نحو (خا، يا، حا). وتعد هذه الأمور من المخالفات في مذاهب الطرفين لدراسة الأصوات. فالشعوب التي دخلت الإسلام في القرنيين الأولين من قرون الإسلام، كانت غايتهم أن يحسنوا قراءة المصحف الشريف، وينطقوا أصواته نطقا عربيا خالصا فلم يجدوا سبيلا إلى ذلك إلا بعد الاطلاع على أصوات اللغة العربية وقواعدها.[13]

لذلك وضع علماء العربية تلك القواعد لتعليم هؤلاء الداخلين في الدين الإسلامي سواء كانوا علماء عربا في أصولهم كالخليل، أو علماء من أصول غير عربية فارسية مثلا، دخلت في الدين الإسلامي، فكان سيبويه رجلا فارسيا خلف لنا وصفا مفصلا لأصوات العربية وانتاجها فكانت دراسته في كتابه المشهور مصدرا لكل ما كتبه المتأخرون من علماء العرب، ليس في علم الأصوات فحسب، وإنما في الصرف والنحو. فهو التلميذ الذي حفظ لنا تراث وعلم أستاذه الخليل في علوم العربية.

وظلت الدراسات الصوتية القديمة ابتداء من مؤسسها الخليل إلى ما قبل العصر الحديث تصدر عن الملاحظة فقط، وبقيت تلك الدراسات عبارة عن ملاحق أو أجزاء من مؤلفات القدامى فلم تصدر تلك الدراسات في مؤلفات خاصة أي منفردة عن الدراسات النحوية والصرفية بل ظلت ملاصقة لها، وبعد العصر الحديث واكتشاف وسائل الدرس الحديثة المتطورة استطاع المحدثون أن ينهضوا بهذه الدراسة وجعل لها مكانا خاصة. أسموه بعلم الأصوات أخذ العلم يدرس بشكل مستقيل نوعا ما عن الدراسات النحوية والصرفية حيث تدرس الأصوات منفردة وتدرس أيضا من خلال التركيب وألفت كتب ومؤلفات خاصة بالدراسة الصوتية وبعنوانات هي الأخرى تعكس مدى الاهتمام بهذا العلم وكانت من أبرز هذه المؤلفات دراسة الدكتور إبراهيم أنيس (الأصوات اللغوية) كذلك دراسة الصوتي اللغوي للدكتور أحمد مختار عمر وعلم اللغة العام – الأصوات للدكتور